تطور الحركة الأدبية
في فرنسا الحديثة(١)

فرديناند برونتيير F. BRUNETIÈRE

١٨٩٤ — ١٩٠٦

للأستاذ خليل هنداوى

— ٢ —

نقده التطورى

كان (برونتيير) فى نقده معارضاً أشد المعارضة للنقد المنفعل وزعيمه (جول لمتر). والنقد الشكى وصاحبه (أناطول فرانس)، كان يؤمن بأن فى خارج عوالمنا حقيقة معهودة وأن ليس حقاً أن تكون الآراء مختلفة وأنواع المذاهب عميقة التباين إلى غير حد. إذ فى الإمكان أن تعرف — وبمقياس خاص — أن نحلل فنحد تاريخ أثر ما، وأن نفسر أخلاق كاتبه، وندرس تاريخ بيئته كما صنع سانت بوف وأن نعمل خيراً مما عملوا. يمكننا هذا ويجب أن نناقشه. أما النقاد المنفعلون فيعملون على ألا يبدوا إلا انفعالاتهم دون أن يجزموا بها. على أن هنالك قواعد كثيرة مرهفة دقيقة تخص الأدب والفن، تجبرنا على أن نناقش الآثار الأدبية ونعمل على تصنيفها وبحسب هذه القواعد شن (برونتيير) الغارة على الواقعية والرمزية، وهنالك شيء غير هـذا يتعلق بالقواعد الفنية

فنظرية الفن من أجل الفن نظرية خطرة يجب ألا نقفنا مجردين إزاء الخير والشر فى الأخلاق، إن أرادوا أو لم يريدوا، فإن أثراً ما قد يثير تأثيراً حسناً أو سيئاً. ومن واجبهم أن يقضوا عليـه مهما كانت بواعث المؤلف إذا كان تأثيره تأثيراً خطراً. والناقد فى نظريته هذه يوافق تلميذ بول بورجيه.

وقد أراد — برونتيير — أن يعطى نقده صفة علمية، وقد زعم أنه اكتشف قانوناً يحيط بالأنواع الأدبية ويصنفها، يقول:

إن الأنواع الأدبية مهما كانت البواعث عليها من ضرورة أو حاجة أو بيئة، فهى مثل الأنواع الحية للأحياء التى درسها «داروين». «كل شيء يتطور. لا شيء يبقى ساكناً. كذلك الأنواع الأدبية تتطور، تمشى حيناً إلى صلاح وحيناً إلى فساد، وقد درس الشعر الغاطى والقصصى وبنى نقده على مذهبه التطورى. وإذا لم يبق لبرونتيير شيء من هـذا المنطق العلمى فإن تطوراته جاءت تحتوى تنظيما للتغيرات الأدبية، تصنف الآثار الأدبية كما يصنف علم الطبيعة أنواع الأحياء. وكان لنقده تأثير كبير فى الأندية الأدبية. ولم يكن هذا النقد يعتمد على الأحوال العلمية فحسب، بل كان يرجع إلى التاريخ وإلى معرفة واسـعة للآثار والنصوص. وذلك ما كان مجهولاً قبله، ولقد كان قبل كونه نقاداً محارباً نقاداً قاسياً ذكياً. فهو وحده أعلى شأن الكتاب المهملين وشأن كل الحركات الفكرية المهجورة لأنها لم تأت فى أثر مذكور، أو قول مأثور. وكان ذا موهبة خطابية يعلمها من كان يشهد محاضراته، وتشهد عليهـا تلك الأفواج الكثيرة التى كانت تسحرها لهجته ويفتنها بيانه

أدب الحياة

إن المدرسة الرمزية كالمدرسة البرناسية تعمل على الانطلاق من حياة الجماعات، لا يؤلف أصحابها إلا لأنفسهم خاصة. فهم ينظمون شعراً لفئة خاصة، وإذا هم ترنموا بالحياة لم يترنموا بالحياة العامة التى يظهر فيها القطيع الإنسانى قطيعاً بائساً يمشى على إيقاع القوات الحاكمة. والعودة إلى الأدب الاجتماعى ومحو التشاؤم (البرناسى) قد ولدا مدارس وآثاراً تريد أن تترنم بالحياة وتملأها شدواً وحناناً وجمالاً. وقد أسس (بوهيلي وموتفور وموريس) مذهباً يعيد للإنسانية جمالها البطولى، وينظم الروابط التى تصلها بالوجود، وينير شعاعها القوى فى الطبيعة. وهـذا الشاعر (فرناند جميك) يذود عن الإنسانية التى تحتل مكانها فى الوجود بواسطة الإنسان. وبعد هذا فإن الوحدة التى أعلنها (جول رومان) والتى تسمى إلى التعبير بصورة رمزية لا عن نفس ولا عن أنفس، ولـكن عن النفس الإنسانيـة عامة التى تبدو حيناً متحدة وحيناً منقسمة. هى النفس الحقيقية العميقة من

(١) عن الأستاذ «دانيال مورنى»

النفوس البشرية ؛ ومن أظهر آثاره فى هـذه المعنى (الجيش فى المدنية)

ومثال ذلك من الشعراء مقاطيع (أميل فار هارم) الشاعر البلجيكى . ولد فى (سانت راماند) بالقرب من (أنفرس) سنة ١٨٥٥ . وقد درس الحقوق فى أول عهده ثم وقف حياته كلها على الشعر ، ودرس خلال ذلك أسرار النفوس الخفية . ومات سنة ١٩١٦

عاش « فارهارم » وتثقف في بلد هادئ ، وفى قلب أسرة متدينة غنية بالعافية مطمئنة القلب . ونشأ هو درّيساً مرحاً وإنساناً يجنح إلى الطرب . وبعد أن قل ميله إلى المدرسة الكلاسيكية ونزوعه إلى لامرتين وهوجو أخذ ينظم شعراً واقعياً حساساً . ولكنه استنفد قواه ، أو أن قواه كانت أضعف مما كان يظن ؛ فأصابه بلاء فى صحته ، حتى أصبحت أعصابه المتوترة لا تستطيع أن تحتمل أية ضجة ، لا وقع لحن ولا وطء قدم . وهذا بلاء تولد عن بلاء نفسى . فلقد كانت طفولته مشحونة بالأساطير ، طافحة بالتقوى والاعترافات والصلوات ؛ ولكنه شك فجأة وجرب باطلاً بأن يستعيد إيمانه ، فكان أن فرّ الإيمان وأقبل الألم

فأخذ يجد فى السياحة فى أطراف البلاد طالباً التعزية لنفسه فكتب ونظم ... وفى هذه الفترة أصاب وطنه أزمات اجتماعية عنيفة حتى أقوت القرى من سكانها ، وعفت المدن بمن استهوتهم بألوانها . ولكن (فارهارم) عاوده الشفاء رويداً رويداً ، فعاد يجد الحب والإيمان . أما الحب فلم يتكلم عنه إلا بمقاطيع محجبة ولكنه يبدى إيمانه به . فالمدن قد فتحت أذرعها إلى القرى لتخليها من أهلها ولكنها — برغم عيوبها وشرورها — قد أوجدت العزم والقوة. وإنها لقوة مشوشة ، ولكنها جميلة مخصبة لأن البرية المنجذبة أخذت تموت . فلترنم الآن بالقوة التى تحيي الموات . هذه هى ألحان الحياة الحاضرة ...

ولكن شفاءه لم يجعل منه إنساناً سافى الشعور . فقد ظل على ارتماشه وهيامه الباطل . وقد علمنا أن له — منذ طفولته — إحساساً عصبياً عنيفاً ، وبعض الذكريات من هذه الطفولة قد ولعت فيه أنواعاً من حب الأسرار ناهيك بطغيان المخيلة عليه . وقد جرى خلف مدارس أدبية حديثة ، فاستمد من شوپنهاور ومن بودلير ومن ڤرلين ومن مالارمى . فكان هو ومعه فئة من بني قومه أسسوا الفن الحديث في بلجيكا الحديثة ، وكانوا ينشرونه فى المجلات الرمزية . وهذه الرمزية كان مزاج شاعرنا يميل إليها

هنالك صور مفاجئة تتولد من نفسه فى ظلمة نفسه بصيحة من نفسه ، أو حلم أو حالة مجهولة ، ومنها تتولد صور أخرى تحف بها فتكون قصيدة رمزية ، لأنها ليست مظهراً عددياً للتأمل . ولكنها نوع من هذا الهيام الباطنى حيث كل خيال يعكس حالة من حالات النفس ، وكل نغمة تمثل فكرة موزونة

وهكذا قدر لشاعرنا أن يعبر فى ديوانيه « القرى الباطلة » و «البرارى الهائمة» عما لا يقدر عليه شاعر آخر من معان تفر من الوضوح ومن التعبير الواضح . فكان بهذا شاعر المطر والريح والسكون وكآبة الهجر والعزلة . وكان بهذا شاعر الكآبة المنجذبة الشاردة للأشياء . ولكن سرعان ما شفى من هذه الحالة النفسية فلم يعد يميل إلا إلى الطرب والنور . وبدلا من تلك المطاحن السوداء والمآسى وحفارى القبور وكل ما يبعث على الأسى أخذ ينظر إلى السنابل المتحركة والمطاحن الفرحة ويسمع الصراصير ويفهم كل أشكال النور والخصب وفرح الحياة . ألم يكن يجد فى كل حالة شقاء له وكمداً دون أن يقدر على الفرار من هـذا الكمد ! كان يحيا في عالم صاخب ، ومذ عاد إليه إيمانه الاجتماعى وتفاؤله نشأ عنده ميل إلى كل ما يرن ويدوى ، وإلى كل ما لا يسقط كالسهم فى النور . وإنما ينساح كالجدول المنساب فى الغابة . فقلما فوجد الشعر العاطفى هو الذى يقدر أن يعبر عن هذا الشعر للحياة الهامسة المضطربة ، هذا الشعر الخطابى حيث تدور الفصاحة فيه وتسيطر عليه . وأطياف من الصور القاسية التى تنتهى بالذوبان فى شبه وحدة متحركة فى الا يقاع الناعم القاسى لحياة لا تجرى على نظام متبوع !

« يتبع »

خليل هنداوى

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من : مكتبة الوفد ، شارع الفلكى (باب اللوق)
ومن : المكتبات العربية المشهورة